**المحاضرة الخامسة: القصة الخرافية**

لما كان الإنسان يعيش في عالم محاط بالألغاز المحيرة والمدهشة، وكان صعبا عليه فهم مبهماتها، حينها أطلق العنان لمخيلته الواسعة والخصبة، التي ابتكرت الأساطير والحكايات الخرافية، فكانت عبارة على تفسيرات لما يدور داخله من تساؤلات، فماذا يعني هذا الشكل السردي الشعبي؟ وما علاقته ببقية الأشكال السردية الشعبية الأخرى؟.

**1\_ مفهوم القصة الخرافية**:

**أ\_ الخرافة لغة:**

يقول ابن منظور في معجمه" لسان العرب"« الخرافة: الحديث المستملح من الكذب وقالوا حديث خرافة، ذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة، أن خرافة من بني عذرة أو من جهينة، اختطفته الجن ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى، يعجب منها الناس فكذبوه فجرى على ألسن الناس» ، فالمعنى المستخلص من هذا التعريف اللغوي أن الخرف هو الهذيان والكلام الذي لا يصدّق.

**ب\_ الحكاية الخرافية اصطلاحا:**

لقد أطلقت أسماء عدة على هذا الشكل القصصي، كالحكاية الخرافية، والحكاية الخارقة وحكاية الخوارق والحكاية العجيبة، الحكاية السحرية...الخ، وقد فضل الدارس" مصطفى يعلى" مصطلح العجيبة، والسبب« أن هذا النوع من القصص الشعبي مبني أساسا على ما هو عجيب ومدهش، لما يمتلئ به من بطولات فوق طبيعية مثيرة، وأحداث خارقة وشخصيات غير مرئية، وفضاءات مؤسطرة غريبة، وأزمنة لا منطقية، وما إلى ذلك مما يثير العجب في النفس، فلا قوام لهذا النوع دون العوالم العجائبية الشيقة، بل لو أنه جرد من هذا العنصر لتحول إلى لغة عادية لا طائل من ورائها ولا هدف لها، ولأصبحت في أحسن الأحوال سردا شعبيا آخر هو الحكاية الشعبية، المهتمة بالأحداث المنطقية والمواقف الواقعية» ، فالواضح أن أهم ميزات القصة الخرافية هي هذه العجائبية.

وهي من أكثر الأشكال انتشارا عند شعوب العالم فهي« تمثل شكلا قصصيا ذا طابع عالمي، يطلق عليه باللغة الفرنسية مصطلحي contemerveilleux» ، ولقد حاول الباحث بورايو أن يعطيها مفهوما شاملا فقال هي:« خطاب قصصي يكشف في مستهله عن ضرر ما، أو إساءة لحقت بأحد الأفراد، أو عن رغبة في الحصول على شيء ما أو المساعدة السحرية التي تسمح له بالحصول على الشيء المرغوب، وتأتي بعد ذلك مرحلة العودة حيث يظهر الصراع الثنائي بين البطل وخصومه الذين يتابعونه، ويضعون في طريقه العقبات، ويتمكن من اجتيازها، ويؤدي المهمات التي تعرض عليه، وينجح في جميع الاختبارات، ويصل إلى منزله ويتم التعرف عليه، فيتجلى في أحسن صورة، وفي الأخير يكافأ ويتزوج ويعتلي العرش» ، والظاهر أن الباحث قد وضع هذا التعريف انطلاقا من التطور السردي للخرافة، ووفقا للوظائف التي وضعها فلاديمير بروب في الحكاية الخرافية.

فيما رأت الباحثة "فاطمة الزهراء جمال الدين" أن« الحكاية الخرافية أحد الأشكال الأدبية المتميزة، حيث تلتقي فيها سمتان من سمات الطبيعة الإنسانية، السمة الأولى الميل إلى العجيب والغريب، والسمة الثانية الميل إلى المنطقي والواقعي، فحيث تلتقي الظاهرتان توجد الحكاية الخرافية» ، فالحكاية الخرافية تجمع بين الواقعي واللاواقعي في الآن ذاته.

**2\_ القصة الخرافية وبعض أشكال السرد القصصي:**

إن كلا من القصة الخرافية والقصة الشعبية والأسطورة، يشكلون نسيجا أدبيا خيوطه متشابكة فيما بينها، وكلها ترتكز على مبدأ الحكي، ومنه يصعب التفريق بينها لشدة التداخل الحاصل بينها، ولكن في حقيقة الأمر أن كل جنس منها يختلف عن الآخر.

لقد حاول الباحث" فراس السواح " أن يضع الفروق الواضحة بين هذه الأشكال السردية فقال« لعل الخرافة هي أكثر الحكايا التقليدية شبها بالأسطورة، ولكن العين الفاحصة ما تلبث حتى تتبين الفروق الواضحة بين النوعين، تقوم الخرافة على عنصر الإدهاش وتمتلئ بالمبالغات والتهويلات، وتجرى أحداثها بعيدا عن الواقع، حيث تتحرك شخصياتها بسهولة بين المستوى الطبيعاني المنظور، والمستوى فوق الطبيعاني، وتتشابك علائقها مع كائنات ماورائية متنوعة مثل الجن والعفاريت والأرواح الهائمة، وقد يدخل الآلهة مسرح الأحداث في الخرافة، ولكنهم يظهرون هنا أشبه بالبشر المتفوقين، لا كآلهة سامية متعالية كما هو شأنهم في الأسطورة، من هنا فإن الحدود بين الخرافة والأسطورة ليست دائما على ما نشتهي من الوضوح» ، هذا من جانب ومن جانب آخر قد تتداخل الأسطورة والخرافة شكلا ومضمونا ما يزيد من صعوبة الأمر، وهنا نبه الدارس" فراس السواح" لمبدأ القداسة الذي يميز الأسطورة فهذه الأخيرة « هي حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيمانا لا يتزعزع، ويرون في مضمونها رسالة سرمدية موجهة لبني البشر، فهي تبين عن حقائق خالدة وتؤسس لصلة دائمة بين العالم الدنيوي والعوالم القدسية، أما الخرافة فإن راويها ومستمعها على حد سواء يعرفان منذ البداية، إنها تقص أحداثا لا تلزم أحدا بتصديقها أو الإيمان برسالتها» ، فالأسطورة هي في أصلها بحث في البدايات والغايات التي انشغل بها الإنسان منذ القدم، بغاية فهم حقيقة العالم والحياة وكشف الغطاء عن الغموض الذي يلفها في كثير من ظواهرها.

ولأن مثل هذه الأجناس متقاربة ومتداخلة فيما بينها، فإن فقدان أحدها لأحد خصوصياته يجعله يتماهى في جنس آخر قريب له « فكلما احتفظت الأسطورة بطابعها الديني القداسي اليقيني بالنسبة لراويها والمروي له بقيت كذلك، أما إذا فقدت هذه القداسة وأصبح أبطالها من الجن والبشر والعفاريت والغيلان، تدخل عالم الحكاية الخرافية، وإذا كانت أكثر ارتباطا بالواقع الحياتي للإنسان وتعالج موضوعات اجتماعية، تنزل إلى ساحة الواقع كانت هي الحكاية الشعبية» . فكلما فقد شكل سردي أهم ميزة له، نزل إلى حيز الشكل السردي الذي يليه.

**3\_ خصائص القصة الخرافية**: حاولنا أن نلخص خصائص القصة الخرافية بحسب ما أوردته الدكتورة المتخصصة نبيلة إبراهيم كالآتي:

 تجسد تجارب الإنسان مع عالمه الداخلي، ولأنها تستجيب لميل الإنسان الفطري لأن يصور لنفسه عالما أجمل من عالمه الواقعي.

 شخصياتها تمتاز بالسطحية، فالشخوص تبدو بلا أجساد وكأنهم يعيشون دون واقع داخلي وبلا عالم يحيط بهم، فالانفعال ليدها بغاية الاستمرار لا بهدف نقل حالة نفسية.

 الحكاية الخرافية تبتعد عن الزمان والمكان، فتصور الشخص الكبير والأصغر والأميرة التي تظل شابه ولو نامت مئة عام، فهم يهرمون ويعيشون الماضي والمستقبل، وهو الضمان الوحيد لعجائبية الأحداث فيها.

 النزعة إلى التجريد والأسلوب الانعزالي، فالبطل منعزل عن الزمان والمكان والأهل والأحداث الجزئية منعزلة، فزوجة الأب تطرح أمام ابنة زوجها أكواما من الحبوب المختلطة لتفرزها في فترة وجيزة، تتدخل الطيور الخيّرة للمساعدة فتحل الأمر في ميعاده، فتطلب زوجة الأب الكرة دون أن تبحث عن تفسير للحدث وكأنه منعزل عمّا قبله.

 التسامي فالحكاية الخرافية تسمو بشخوصها وتفقدها جوهرها الداخلي، فتتحول إلى أشكال شفافة خفيفة الوزن والحركة، وتفرغهم من عواطف الغضب والثورة والحقد والحسد، وتدخلهم في غمار الأحداث دون إحساس بالتعب والكآبة، فتقف بذلك في عالم مليء بالسحر والأمل.

 الحكاية الخرافية توظف الشخوص السبعة( الأميرة، الشخصية الشريرة، الشخصية المانحة، الشخصية المبعدة للبطل، البطل المزيف، البطل الحقيقي، الشخصية المساعدة). وكل الشخصيات تلعب دورا في حياة البطل لتحقيق أهدافه.

 الرموز فالحكاية الخرافية تزخر بها من ذلك المسخ، فالمرأة الجميلة في وسعها أن تحول الرجل الممسوخ في صورة حيوان إلى رجل جميل تتزوج به، بالإضافة إلى رمز الشيء المحرم الذي لا يحق للبطل الاقتراب منهن ومع ذلك نجده شغوفا لاختراقه، ما يقود الأحداث إلى التعقد.

ولابد من الإشارة أن كل ميزة للحكاية الخرافية، يمكن مقابلتها بعكسها عند المقارنة بينها وبين القصة الشعبية، يضاف فرق آخر يميزها عن القصة الشعبية أنه يطبق عليها المنهج المورفولوجي لفلاديمير بروب ولا يمكن تطبيقه على القصة الشعبية.

وعن أهم الفروق بين الحكاية الخرافية أو العجيبة والحكاية الشعبية فإنها تظهر في الجدول الآتي:

|  |  |
| --- | --- |
| **الحكاية الشعبية** | **الحكاية الخرافية** |
| \* تعيد ذكر المواقف التي حدثت أو يمكن أن تحدث لذا فالعرض فيها أكثر علمية وموضوعية  \*بنيتها بسيطة  \* تؤخذ غالبا مأخذ الحقيقة  \* تقع التجربة في بؤرة الحكاية الشعبية  \* التجربة المعالجة هي التي تمتد بتسلسل الحكاية  \* حسية تصف الطبيعة وتصور العوالم الأخرى في دقة وتفصيل.  \* تعيش جو واقعي ورغم ذلك تستعين بصنوف السحر وأشكال من العالم المجهول لكن بطريقة مختلفة، فالبطل لا ينغمس كل الانغماس في العالم العجائبي المجهول، إنما ينظر إليه بوصفه قوة منعزلة عن حياته الواقعية وسرعان ما يرتد إلى عالمه خائبا فتوظيف العناصر السحرية باعتبارها رموزا تصل بالبطل إلى الحقيقة المجهولة.  \* البطل على وعي تام بالعوالم المجهولة لذلك تثير في نفسه الرهبة والفزع لذا فالحكاية الشعبية ذات بعدين.  \* الشخصية تنمو من الداخل، فإحساس البطل بالخطر يدفعه لاستكشافه من داخل نفسه.  \*حركة البطل أسيرة القيود التي تكبل الإنسان وتحد من حركته وشخوصها يرتبطون بالزمان والمكان يتحركون من خلالها في واقع لا يستطيعون الفكاك منه.  \* تنتهي بتأكيد وجود الشر في حياة الإنسان. | \* العرض فيها أقل علمية وموضوعية.  \* بنيتها مركبة  \* لا تؤخذ بهذا المأخذ  \* يقع الشخص (البطل) في بؤرة الحكاية العجيبة  \* مصير الأبطال هو الذي يفرض عليها الامتداد بالموضوع  \* تنزع إلى المثالية موضوعا والتجريد عرضا.  \*توظيف العناصر السحرية من أجل إبراز طبيعة البطل إلى النهاية السعيدة.  \* الحكاية العجيبة ذات بعد واحد فالعالم المجهول يقع في مستوى العالم المعلوم.  \* تنمو الشخصية من الخارج تحركها قوى خارجية بالمساعدة.  \* حركة البطل تتم بحرية مطلقة فهو خفيف الحركة.  \* تنتهي بالقضاء على الشر. |